

حرب لبنان 1975 - 1990: نظرة شاملة إلى واقع مُجزأ

حسام عيتاني

يكاد عبد الرؤوف سنو لا يفوت وجها من وجوه الحرب الاهلية اللبنانية الا ويتناوله بالدرس والتدقيق، من الفوراق والتباينات في النظر الى الثقافة الوطنية واللغة العربية وصولا الى حروب الازقة بين الميليشيات في بيروت الثمانينيات، ومن المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي الى جولات المفاوضات الدبلوماسية التي لم تتوقف طوال خمسة عشر عاما بين جميع المعنيين بالصراع الدائر، واسفرت في نهاية المطاف عن اتفاق الطائف، وبين هذه وتلك حروب فرعية بين فئات قيل انها متحالفة او انها من «ابناء الصف الواحد» الذي اتت الحرب على وحدته .

الاحاطة الشاملة هذه تطلبت منهجا اكايمي صارما يذهب بالتدرج من استعراض القوى السياسية والطائفية ووجهات نظرها في الوطن والتعايش بين فئاته، الى تقديم لمحات عن الوضعين الاقليمي والمحلي في الاعوام التي سبقت اندلاع القتال في العام 1975 جاعلة من لبنان بؤرة توتر وصدام فاقمت من التناقضات الداخلية .

يفترض هذا النوع من الكتابة التاريخية، وللدكتور سنو مساهمات سابقة فيها، تلمس جوانب قد لا تبرز الى واجهة الاهتمامات عند انفجار التناقضات حيث يهيمن عندها الهاجسان السياسي والامني المباشران. لذا، تحضر بتوسع اهتمامات تتعلق بالاقتصاد وتأثره بالحرب واستيلاء الميليشيات المسلحة على الاقتصاد وتطويعه لمصالحها، ودور القطاع المصرفي والاداء الاعلامي .

ويرصد عبد الرؤوف سنو بتفصيل وتوسع الآليات التي عملت على مدار اعوام على هدم بنية الدولة التي اضطرت تحت عبء الانقسام «الميداني» الى انشاء فروع لادارتها فساهمت، من حيث ارادت ان تخفف معاناة المواطن، في تكريس التباعد بين اللبنانيين، الى جانب ما لحق ببنى أخرى كثيرة في الاقتصاد والاجتماع، دارسا الحالة الاجتماعية المعيشية عند اللبنانيين مع تطاول فترة الحرب الاهلية وتأثيراتها على الاسرة والقيم الاخلاقية والتماسك الاجتماعي .

ولعله من المفيد لباحث في الشأن اللبناني العثور على كل ما سبق وغيره الكثير، في سفر واحد من مجلدين كبيرين، قد يغنيان عن البحث والقراءة في عشرات المصادر المتفرقة. وهذا وجه مباشر من اوجه الفائدة التي نزع ان القارئ قادر على ايجادها في كتاب «حرب لبنان 1975-1990: تفكك الدولة وتصعد المجتمع».

وقد يكون من ميزات الكتاب افراده اقساما مهمة منه لادوار المؤسسات الاهلية التي عملت على التخفيف من وقع نوازل الحرب على اللبنانيين، من هيئات صحية واجتماعية عادة ما كانت ادوارها تغيب وراء صور القيادات السياسية والعسكرية، ما ادى الى اغماطها حقها في الكثير من المناسبات على الرغم من تضحيات لا تتكرر قدمتها . يضاف الى ذلك ان الخلفية الاكاديمية لسنو ربما ساهمت في تشجيعه على التوسع في تناول الحالة التعليمية في لبنان اثناء الحرب من زوايا متعددة .

وجه آخر قد لا يقل اهمية يكمن في ان المجلدين هذين الصادرين في الذكرى الثالثة والثلاثين للحرب الاهلية، يأتيان في مرحلة تعود فيها اشباح الاقتتال الداخلي لتلاحق اللبنانيين. ولا مفر في مواجهة الاشباح هذه من التمعن في الظروف التي قادت الى الانفجار الكبير في نيسان، 1975 وما سبقه من خلافات عميقة داخلية ومن بحث عن ساحة لتفجير الصراعات الاقليمية بعد حرب العام 1973 التي ثبتت نوعا من التوازن على الجبهات التقليدية للحروب العربية الاسرائيلية في سيناء والجولان وغيرهما .

يدفع هذا الى ممارسة عادة التصنيف السياسي لكل عمل يدور حول الحرب اللبنانية. يدرأ الكاتب وقوع قارئه في فخ التبسيط والتسرع في اطلاق الاحكام من خلال الاحتكام الى عدد كبير من المصادر والوثائق والمقابلات مع شهود عايشوا تلك المرحلة مساعدا القارئ على تكوين رأيه الخاص من دون ان يكون الكاتب بعيدا عن المشهد. لذا لن يكون مفاجئا ان اللهجة الموضوعية العامة للكتاب لم تختل على طول صفحاته، من دون ان تغادر، في الوقت ذاته، موقفا مؤيدا للخيارات العريضة للقوى التي قالت انها تعمل وتنشط من اجل تكريس هوية لبنان العربية وما يتفرع عنها من التزامات .

الموقف الذي وصفناه بالعريض لا يذهب الى حدود التعميم الايديولوجي والالتحاق الساذج بأي طرف من اطراف القتال. فلا مكان هنا للتبني المسبق لأي من مواقف الاطراف وآرائها، قبل تمريرها على مشرحة التمحيص والتدقيق في الوثائق واقامة الدليل على الوقائع موضوع التساؤل .

كما يبدو واضحا اعتراض المؤلف على طروحات «القوميين اللبنانيين» الذين قطعوا اشواطاً بعيدة في السير نحو عزل لبنان عن العالم العربي، وكل ما تبع ذلك من مغامرات مثل التعامل مع اسرائيل وهو ما قاد الى عواقب وخيمة

ولا يخفى ان تاريخاً ينطلق من زوايا متعددة ليرسم صورة لبنان اثناء الحرب الاهلية، في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يشكل زادا ضروريا للمساهمة في فهم وتشخيص الازمة التي يتردى فيها بلدنا اليوم. وعلى الرغم من وفرة الكتابات التي تناولت الحرب وظروفها، فإن المشكلة كانت دائما، وما زالت في ندرة القراءات .

فأن يقوم كاتب مثل عبد الرؤوف سنو بهذا الجهد الضخم الذي استغرق سنوات من العمل و«تورط» فيه الى جانبه عدد من الذين ساعدوه على توفير المادة البحثية، يبقى في احسن الاحوال، نصف المهمة الملقاة على عاتق اللبنانيين وخصوصا الاجيال الشابة من بينهم، المطالبة بتعميق فهمها وادراكها لواقع وطنها وللتجارب التي مرت عليه، كوسيلة لا غنى عنها لمنع الوقوع في الفخ ذاته مرات عدة .

وعلى غرار كل الكتب المتعلقة بمراحل صراعية من التاريخ، لن يكون الكتاب هذا موضع اجماع من قبل الاطراف التي شاركت في تلك الحرب والتي ما زال بعضها يتصدر الساحات السياسية، غير ان المهم في المسألة هنا هو ان الكتاب يشكل اصرارا على الاستمرار في الجدل والحوار بين اللبنانيين حول تاريخ وحاضر ومستقبل تعايشهم ووطنهم ودولتهم .

عبد الرؤوف سنو، «حرب لبنان 1975-1990: تفكك الدولة وتصعد المجتمع»، جزآن، «الدار العربية للعلوم - ناشرون».